

الطفل . هموم الطفل بالمعنى الدقيق ليست إلا جزءا من نسيج واسع مركب ، ولا يستطيع الجزء أن يحفظ شخصيته الأولى . وبعبارة أخرى إن تجارب الطفل « ثقفت » أو نقحت أو عولجت وأدخلت فى كل جديد .

هذا المجموع غريب حافل بالمفارقة ، حافل بتداخل نفى وإثبات . ونستطيع أن ننظر مرة ثانية أو ثالثة إلى قول الدكتور طه يصف المستمعين فيقول : وهم سكوت إلا حين يستخفهم الطرب ، أو تستفزهم الشهوة ، فيستعيدون ، ويتمارون ، ويختصمون . سداجة الفن جعلت الدكتور طه يقول إنه يحسد الأرنب . ولكنه بداهة - فى إطار الطفل - لا يحسد الناس الذين يختصمون ، ويتجادلون ، ويستعيدون . ظلت صورة هؤلاء عالقة فى ذهن الكاتب . أصبح يعيد تأليف صورة السامعين القدامى . أصبح النقاش والخصام طربه ونشوته . وبعبارة ثانية تختفى الأرنب اختفاء . ويظهر أمامنا أبوزيد وخليفة ودياب . بين هؤلاء وبين الأرنب شبه غريب أخاذ . هؤلاء يقرضون ، ويشون وينسلون . الأرنب إذن كانت أكبر من ( الأرنب ) . وأبوزيد وخليفة ودياب كانت لديهم أشواق أرنب . هذا عالم الألفاظ المتنافسة المتعاطفة .

وتستطيع أن تلاحظ على هذا المنوال أن السياج والأرنب وأبا زيد ورفاقه يختفون أيضا . لدينا الشاعر الذى يعيد قصة الأرنب ، وقصة أبى زيد ، وقصة الدكتور طه أيضا ؛ فقد دخل الطفل فى هذا العالم لسبب بسيط . إنه مشوق إلى هؤلاء جميعا . وفى إيماء غريبة ساحرة خيل إلى القارئ أن طه الطفل كان يحلم أن يكون شاعرا يستمع إليه الناس ، يستعيدونه ويخاصمونهم ويتمارون فيما يقول . الشاعر موقفه غريب أيضا . يحيط به الذين يسمعون فى طرب وشهوة وممارسة وخصام ، ولكنه عذب الإنشاد ذو نغمة ثابتة لا تتغير . هذا جو الخصام المحبوب الآمن الذى لا يرمى فيه المستمعون بعضهم بعضا . يختصمون فنونا من الاختصام ، يسكتون ويستعيدون ويتجادلون ، ولكنهم يلتفتون حول إنسان واحد . حول شاعر يلهمهم النشوة والطرب ، ويشير فى نفوسهم حب الجدل والاختلاف . ولكن الدكتور طه لا يثبت أمام الشاعر أو لا يثبت الشاعر أمامه . لقد أجرى عليه فنونا من المراجعة والتنقيح . ألا تلاحظ أولا أن الشاعر قريب من الأرنب . الأرنب عذبة ذات حركات لا تكاد تتغير على نحو ما قال الدكتور طه فى الثناء على الأرنب . ولكننا نلاحظ ثانيا ، وهذا أهم فيما أتوهم ، أن الأرنب تشب وتنساب وتقرض لكنها لا تعيا . الشاعر عذب ذو نغمة واحدة : فقدرته إذن على التصرف محدودة رغم عذوبته ، والعذوبة إنما نمت فى أسماعنا وخيالنا لأننا لا نطالبه